يوبيل الكرملي

والنهضة اللغوية الحديثة

كان وقت لم يحفل فيه أحد بتكريم نوابغ الرجال يشار الى أن أخذ الاستيقاظ الفكري يدب في بيئاتنا المتعلمة ، فبدأنا حينئذ نلتفت الى هذا الواجب الاجتماعي . فاهتم عظماؤنا بتكريم المرحوم العلامة سليمان البستاني معرب « الالياذة » ، وتبعت ذلك حفلات للتكريم مناسبة وجديرة بالاعتبار . ثم جاء وقت أصبحت فيه حفلات التكريم مذالة تقام بمناسبة وبغير مناسبة لكل من خدمته الظروف ، سواء كان أولم يكن على جانب من المواهب المذكورة وأخيراً في عهدنا الحاضر — عهد التيقظ الأتم — أخذنا نعنى بتكريم نوابغنا في مصر خاصة وفي العالم العربي عامة ولكن بميزان .

ولعل من أصدق المظاهر لهذا التنبه المحمود حفلة اليوبيل الكبرى التي أقيمت حديثاً في بغداد لامام اللغة الشهير الأب أنستاس مارى الكرملي ، وقد اشتركت في اقامتها الحكومة العراقية ورجال الأدب في العالم العربي ومشاهير المستشرقين . ولو كانت الحفلة في مدينة سهلة المواصلات لحفرها الجم الغفير من أهل العلم والادب من مختلف الاقطار ولكانت مؤتمراً أدبياً عظيماً . ولما اكتفى الكثيرون اضطراراً باهداء تمنياتهم الطيبة عن بعد . على أننا نرجو أن يكون لمصر حظ خاص في تكريم حضرة الأب الجليل بين ربوعها في المستقبل .

ولكن لماذا نعلق أهمية خاصة على هذا اليوبيل ليس ذلك لمنزلة فضيلة الأب المحتفل به فقط ، ولكن لظروفه الاجتماعية أيضاً . فالأب الكرملي راهب متقشف يعيش في بيئة منقسمة إلى شيع وطوائف دينية شديدة التعصب ، تنفر كل منها من الاعتراف بفضل من لا ينتسب إليها ، وكثيراً ما تستحل الطعن في أخيار الرجال مدفوعة بعامل التعصب المذهبي الذميم !! ولكن برغم كل ذلك لاقى الأب الكرملي من الحفاوة البالغة به ما دل دلالة صريحة على التيقظ الفكري السليم في العراق بل في العالم العربي بأسره ، وكان ذلك في دار نخامة رئيس الحكومة العراقية برعاية معالي وزير

معارفها . وتشرف كثيرون من الوجهاء والادباء وعظماء أبناء العراق على اختلاف مشاربهم وعقائدهم الدينية والسياسية .

***

ولد الاب أنستاس في بغداد في ٥ آب أغسطس سنة ١٨٦٦ م . فهو الآن شيخ جليل يناهز التسعين من سني حياته المباركة . ولكنه مازال قوي الشعلة وهج وصفاء ضميره وجلده العظيم وفي حب العمل النشيط ، وانجاز نفسه هبة صادقة للغة والآداب . مستبقيا عهده الذهبي في تقشفه الدائم .

وقد أنفق الاب الفاضل نحو خمسين عاما في تدريس العربية وآدابها . فتظهرت علامات نبوغه المبكر وهو ابن ست عشرة سنة وحينئذ تولى التدريس في مدرسة الكرمليين ببغداد ، وكان قبل ذلك يقوم بالتدريس الخاص . وهذا نبوغ مبكر حقا . ولم يكن نشاطه قاصرا على التدريس بل كان يكاتب عدة من كبريات الصحف والمجلات في ذلك العهد كالمشير والمقتطف والجوائب مبتدئا بالانجاث اللغوية والادبية . وفي سنة ١٨٨٦ م . فتحت المدرسة اليسوعية الاكليريكية في بيروت لتدريس العربية . وفي الوقت ذاته كان يدرس اليونانية واللاتينية .

وقد أتم فضيلة الاب الكرملي دراسته العالية ورسخ في سحيكة وفرسة . وبعد أن قضى عامين فرنسة إلى الاسكس ليطلع على مخطوطات الخزانة العربية . ثم عاد الى بغداد فتولى ادارة المدرسة الكرملية وتعليم العربية والفرنسية فيها الى أن تفرغ أخيراً لابحاثه الشيقة العظيمة ومجلته الشهيرة (لغة العرب)

وقد زار المترجم مصر كما زار أوربة مرارا . وكذلك تجول في كثير من أقطار الشرق . فاكتسب بذلك معارف شتى وخبرة واسعة بطباع الناس وأخلاقهم وميولهم .

ولفضيلته من الابحاث المبتكرة في كبريات المجلات كالمقتطف والهلال والمشرق والزهور والمقتبس والمباحث والمنهل والزهراء . وفتاة الشرق وغيرها ما كان ولا يزال موضع العناية والاجلال ، سواء كان بامضائه الصريح أو بامضاء مستعارة كما كان يفعل كثيرا زهدا في الشهرة ، وحبا في خدمة اللغة والأدب والتاريخ لذاتها .

ويعد الاب الكرملي عن جدارة الحجة الثقة في نسبة اللغة العربية ، شيخ أمتها

وما كان ذلك عن اطلاع كبير أو عن ذاكرة نادرة فقط بل كان أولا تعبقريته المبتكرة الفذة : فاذا أردت دليلا ساطعا في مجال البحث المستقصي المشبع بالتحليل والذكاء والاستنتاج العميق فحسبك أن تقرأ ما كتبه عن « أداة التعريف في التاريخ » كمثال لمباحثه الجليلة التي لم يسبقه اليها باحث ولم يلحقه فيه مجتهد : واذا أردت نموذجا للنقد اللغوي الدقيق الممتلىء بالانصاف والأحكام فحسبك أن تقرأ ما كتبه في نقد معجم « البستان » . وهذه بحثه « لغة العرب » مفعمة دائماً بالكثير من مباحثه النقدية القيمة .

وقد أدى تخصص الأب الكرملي في فقه اللغة العربية الى اهتمامه بلغات شرقية قديمة وحديثة وتضلعه منها كاللغات الأرمنية والعبرية والحبشية والفارسية والتركية والصابئية ، دع عنك اللغات الاوربية القديم منها والحديث على السواء . فأصبح دائرة معارف لغوية مدهشة ، وصار علماً لايسامى في منزلته ومعارفه الفذة الممتازة التي يستثمرها خير استثمار في جميع كتاباته ومباحثه .

وقد نكب الأب الكرملي أثناء الحرب العظمى بتبديد مكتبته الكبيرة على أيدي الاتراك ونفيه زمنا الى قبصرى حيث لاقى صنوفا من الهوان والعذاب حتى اذا عاد الى وطنه انكب غير يائس على اصلاح ما أتلفت ظروف الحرب والسياسة مجدداً قدر الطاقة مكتبته ، ومضاعفا جهوده لخدمة اللغة العدنانية . ورغم مكانته العالية في جميع المحافل الأدبية واللغوية وفي دوائر المستشرقين التي كثيرا ما ترجمت مقالاته الى الفرنسية والانكليزية والالمانية والروسية والايطالية والاسبانية فانه لم يقو على نشر تآليفه وهي كثيرة حتى اذا استثنينا منها ماعبثت به أيدي الغزاة أثناء الحرب العظمى حين تبديد مكتبته ونفيه مع من نفي من كرام العراقيين . ومن أهم تآليفه (غير تصحيح المعاجم الكبرى وغير اشتراكه في تهذيب تآليف جمة تنشر وتشرت في الشرق العربي وفي أوربة) هذه الاسفار القيمة : « جمهرة اللغات » و « كتاب الجوع » و « كتاب السحائب » و « الغرر النواضر » و « العرب قبل الاسلام » و « شعراء بغداد وكتابها » ، وطالما تناول من مباحث اللغة والادب ومسائل التاريخ ما يمتاز بالابتكار والتعمق والاستقصاء بحيث قد فراغا عظيما في ثقافتنا اللغوية والتاريخية ، ويبلغ مجموع مؤلفاته نحو ثلاثين كتابا جديرة كلها بالذيوع والاجلال . ولعل أهم ما يعنينا منها معجمه الكبير الذي ضمنه

ماذكرته المعاجم القديمة وما أغفلته . ويجب أن لاننسى أيضا فضله العظيم فى وضع ألفاظ جديدة لكثير من المسميات الحديثة ، تستعملها تكرارا دون أن نعرف مبدعها المتواضع الثرارى ولعل أشهرها لفظ « برقية » لكلمة (التلغراف) ، ولفظ معلمة لكلمة (انسيكلوبيديا) .

ومن المصريين الذين كتبوا عن الأب الكرملى كتابة تاريخية ذات تحليل فلسفى الاستاذ احمد الشايب الذى عد الكرملى فى العراق بل فى الشرق العربى مدرسة قائمة فى شخصه يقابلها فى مصر دار العلوم . وعندنا ان الأب الجليل أسمى من ذلك وحسبك أن تطلع على آثار المستشرقين وبحاثهم وعلى جميع الكتب العربية المحققة الهامة التى صدرت فى أواخر القرن الماضى وفى هذا القرن لترى الفوذ اللغوى والأدبى للعلامة الكرملى مثبتاً فيها . حينما لاتجد شيئا من هذا لأساتذة دار العلوم . . . فلا عجب بعد ذلك اذا كانت سيرة هذا اللغوى الكبير مبحثا فى الغرب وموضوع كتابة امثال كراتشكوفسكى المستشرق الروسى ، وغريفينى المستشرق الايطالى . كما أنها موضوع إجلال كل عربى يجعل العلم النزيه غير متأثر بالتعصب الاعمى لجنس أو دين أو مذهب .

* * *

وبعد هذا ، فما هو أثر الكرملى فى نهضتنا اللغوية الحاضرة ولماذا يكون لبوريله ميزة خاصة .

وعندنا ان الاجابة على هذا السؤال الوجيه ميسورة وخليقة بالاهتمام بها فنجملها فى النقط الآتية .

(١) الأب الكرملى مثل لرجل العلم اللغوى الصادق الذى يقدس النزاهة العلمية غاية التقديس ، وحسبنا أن نذكر مناقشته التاريخية الحادة للأب لويس شيخو اليسوعى حينما نسب النصرانية خطأ الى بعض شعراء العرب وأدبائهم . فأبت ذمة الأب الكرملى النصرانى أن يقبل ذلك إنصافاً للعلم والتاريخ . وهذه الصفة النزيهة متجلية فى جميع كتاباته بحيث انه يتساوى أمامه فى مجال النقد الأصدقاء وغيرهم على السواء . وهذا اجعل الكرملى قوة صالحة فى النقد ، وكون لآرائه المستنيرة قيمة

ثمينة فى عالم الأدب ، كما خلق له كثيرين من الخصوم بين الجهلة والمغرضين وأهل الادعاء الكاذب .

(٢) للرجل فضل لاينكر فى حركة النشر اللغوى والأدبى الصحيح شرقاوغرباً ونظن الاساتذة أحمد زكى باشا واحمد تيمور باشا والدكتور محمد شرف بك وأمثالهم فى مقدمة من يشهدون بذلك . وهذا مايجعل العالم العربى بأسره مدينا لفضله العميم

(٣) وضع الأب الكرملى قواعد جديدة للبحث والنقد اللغوى ولدراسة فقه العربية تنم عن ذكاء عظيم ومقدرة فائقة فشجع الابتكار فى الدرس والبحث ،وقضى على أساليب القدامى النقلية التى جنت شر جناية على ثقافتنا اللغوية وأطالت أسرها فى سلاسل التقليد .

(٤) قضى الأب الكرملى على التقطع اللغوى ، وبرهن برهاناً عملياً على أن العالم اللغوى يجب أن لا يتجرد من صفات الكاتب الأديب العصرى .وهذا مايمتاز به أسلوبه دون غيره من اللغويين المتحذلقين وإن لم يدانوه معرفة وذكاء .

(٥) عاش الرجل طول حياته الثمينة العامرة مثال النزاهة والشمم والاخلاص الكلى لما وهب نفسه له . فاستحق بتضحياته المتنوعة المتواصلة إكبارنا الأوفى .